جهود التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر
دراسة في كتاب (جدل التأصيل والمعاصرة في الفكر الإسلامي) لمؤلفه محمّد المستيري

أ. د. خميس غربي حسين
gbomkamis@yahoo.com
جامعة تكريت/كلية الآداب

Renewal Efforts in Contemporary Islamic Thought
A study in the book (The Controversy of Rooting and Contemporaneity in Islamic Thought), authored by Muhammad Al-Masteri

Prof. Dr. KameesGharbee Hussein
College of Arts/ University of Tikrit

الملخص

لا شكَ أن العالم الإسلامي يعاني من أزمة وصلت بالأمة إلى الحال الذي آلت إليه ، مما هيأ الأجواء للمفكرين والعلماء من أجل التجديد والتقصيد في الفكر والمنهج ، بغية إعادة صياغة الأفكار الدينية كي تتوافق مع حاجات العصر ومتطلبات الإنسان بما لا يخل بالعقيدة ، ولا يبتعد عن الفقه الإسلامي ، لذلك برز العديد من المفكرين المعاصرين الذين أثروا الساحة الفكرية الإسلامية بما يمتلكون من رؤى وأفكار أسهمت ببناء منظومة تجديدية تلائم الواقع الإسلامي المعاصر ، لأن ثمة مجموعة من القيم أفرزها عصر الانحطاط في التاريخ الإسلامي ، وأُلبست مع شديد الأسف رداءً إسلاميًا ، كأولية النقل على العقل ، والمنهج الغيبي في التفكير ، والقدرية والتواكل ، والصبر على الظلم ، وتقسيم الناس على عوام وخواص، وَكُتبَ الفقه على أساس فقه الفرد كي يتوافق مع منظور الحاكم وغاياته ، وليس فقه الأمة ومتطلبات العصر وحاجات الفرد المتغيرة .

من المعلوم أن الاستجابة لتحديات العصر تأتي من خلال التأكيد على خصوصيات الإسلام وقداسة نصه ، مع الأخذ بالاعتبار حاجة المسلمين إلى إعادة قراءة التراث بمرونة النص الديني ، لأن روح الإسلام الحقيقية متجددة ، وما نحتاجه هو استنطاق هذه الروح من أجل قراءة النصوص بما ينفع الإنسان ، ويدفع عجلة الحياة إلى الأمام ، نحو رؤية فكرية متقدمة ومتطورة وفعّالة ، تجمع بين إشكالات الخصوصية الثقافية الإسلامية والمشترك الإنساني .

وعلى ما يبدو أن إشكالية سؤال التجديد ، وكيفية التحديث في العالم الإسلامي شغلت العقول واستقطبت أقلام المفكرين ، ونشأت حول هذه الإشكالية عمارة معرفية دشنها منظرون وعلماء ومحللون ، أبدعوا وقدموا نظريات ، وأسسوا مدارس ، ووضعوا مناهج للنظر والتحليل ، ولا يزالون يبدعون ويضيفون ، ويراكمون ، إغناءً وتعميقاً أو نقداً وتفكيكاً . والمفكر والباحث محمّد المستيري واحد من هؤلاء المنظرين في الفكر العربي المعاصر ، له موقف ورؤية حول التجديد ومنهجه ومنطلقاته .

ينطلق محمد المستيري من فرضية مفادها أن جوهر الخلل في الفكر الإسلامي المعاصر هو افتقاره للرؤية الكلية التي تمنحه القدرة على إدراك المشكلات المعاصرة في وجهها المركب والمتداخل والمنساب في تاريخ المسلمين ، مبيناً أن التجديد شرط حياة الفكر الإسلامي وحيويته وإبداعه .

الكلمات المفتاحية : جهود ، تجديد ، فكر ، كتاب ، جدل ، مستيري .

Abstract

Undoubtedly, the Islamic world suffers from a crisis that has brought the nation to the state it has reached, which has created the atmosphere for thinkers and scholars for renewal and refining in thought and approach, in order to reformulate religious ideas to conform to the needs of the times and the requirements of man in the Islamic world in a manner that does not violate faith. He is away from Islamic jurisprudence, so many contemporary thinkers have emerged who have enriched the Islamic intellectual arena with their visions and ideas that contributed to building a renewal system that suits the contemporary Islamic reality, and among these Islamic thinker Muhammad Al-Masteri.

It seems that the problematic of the question of renewal, and how to modernize in the Islamic world, occupies the minds and attracts the pens of thinkers. A knowledge architecture has arisen around this problem, inaugurated by theorists, scholars and analysts, who have created theories, established schools, and established methods for consideration and analysis, and they are still creating, adding, accumulating, enriching. and in depth, or criticism and deconstruction. The thinker and researcher Muhammad Al-Masteriis one of those theorists in contemporary Arab thought, with a position and a vision about renewal, its approach and its premises.

Muhammad Al-Masteriproceeds from the hypothesis that the essence of the defect in contemporary Islamic thought is his lack of a holistic vision that gives him the ability to perceive contemporary problems in their complex, overlapping and flowing face in the history of Muslims, indicating that renewal is a condition of the life, vitality and creativity of Islamic thought.

Keywords: Efforts , renewal, thought, book, controversy, Al-Masteri

المقدمة

يعاني العالم الإسلامي من أزمة وصلت بالأمة إلى الحال الذي آلت إليه ، مما هيأ الأجواء للمفكرين والعلماء من أجل التجديد والتقصيد في الفكر والمنهج ، وصـــولاً إلى صـــياغة أفكار ورؤى في التجديد، بغية إعادة بناء منظومة فكرية إســـلامية تتوافق مع حاجات العصـــر ومتطلبات الإنسـان في العالم الإسـلامي بما لا يخل بالعقيدة ، ولا يبتعد عن الفقه الإسـلامي ، لذلك برز العديد من المفكرين المعاصـرين الذين أثروا الساحة الفكرية الإسلامية بما يمتلكون من رؤى وأفكار أسهمت ببناء منظومة تجديدية تلائم الواقعالإسلامي المعاصر ، لأن ثمة مجموعة من القيم أفرزها عصر الانحطاط في التاريخ الإسلامي ، وأُلبست مع شديد الأسف رداءً إسلاميًا ، كأولية النقل على العقل ، والمنهج الغيبي في التفكير ، والقدرية والتواكل ، والصـــبر على الظلم ، وتقســـيم الناس بين عوام وخواص الخواص ، وَكُتبَ الفقه على أساس فقه الفرد كي يتوافق مع منظور الحاكم وغاياته ، وليس فقه الأمة ومتطلبات العصر وحاجات الفرد المتغيرة .

وعلى ما يبدو أن إشكالية سؤال التجديد ، وكيف يتم التحديث في العالم الإسلامي شغل العقول واستقطب أقلام المفكرين ، ونشأت حول هذه الإشكالية عمارة معرفية دشنها منظرون وعلماء ومحللون ، أبدعوا نظريات ، وأسسوا مدارس ، ووضعوا مناهج للنظر والتحليل ، ولا يزالون يبدعون ويضـــيفون ، ويراكمون ، إغناءً وتعميقاً ، أو نقداً وتفكيكاً .والمفكر والباحث محمّد المســـتيري واحد من هؤلاء المنظرين في الفكر العربي المعاصر ، له موقف ورؤية حول التجديد ومنهجه ومنطلقاته .

من الجلي أن التجديد في الفكر الإسلامي يرتكز في مستويين : أحدهما إسلامي داخلي ، وثانيهما محاكاة الفكر الغربي والحضارة الأوربية ، حتى لو كان الأمر في الواقع لا يتعلق بحوار عقدي قيمي ، بل بإشكالات التغيير والبحث عن الأفضل .

ينطلق محمد المستيري من فرضية مفادها أن جوهر الخلل في الفكر الإسلامي المعاصر هو افتقاره للرؤية الكلية التي تمنحه القدرة على إدراك المشكلات المعاصرة في وجهها المركب والمتداخل والمنساب في تاريخ المسلمين ،مبيناً أن التجديد شرط حياة الفكر الإسلامي وحيويته وإبداعه .

والكتاب في طياته يبين هموم المنهج في مقاربة القضـايا المعاصـرة التي تواجه الفكر الإسـلامي المعاصـر من منطلق كلي تأسـيسـي وتأصيلي ، وهو كذلك محاولة للإسهام في تجديد النظر بين إشكالات الخصوصية الثقافية الإسلامية والواقع المتغير ، ثم إن أهمية هذا الموضوع الحيوي تنبع من الظروف والإشكالات التي يعيشها الإنسان المسلم في الوقت الحاضر، فقد تعددت أمامه الخيارات ، واختلفت الرؤى والأحكام ، والكل ينادي هذا هو رأي الإسـلام ، فمن الانكفاء على الذات واتباع أثر السـلف خطوة بخطوة ، إلى التسـليم بما عند الغرب من آراء فكرية جاهزة ، إلى فريق يحاول الموافقة والموائمة بين التراث ، والأخذ من الآخر ، وهم أي الفريق الثالث ، إذ ما حسبوا مع الفريقين السابقين قليلون .

قضيتان محوريتان شاعتا في الثقافة الإسلامية واستحوذتا على وجدانها ، وهما : أزمة الإنسان المعاصر في مواجهة معطيات المرحلة التاريخية الراهنة المتجسدة في صورة الاستلاب الحضاري والفكري ، والقضية الثانية هي كيفية الموائمة الفكرية للإجابة عن تساؤل النهضة التي هي جوهر وروح التجديد .

ثمة حقائق تؤثر في حركة الحياة ، ومن ثم تنعكس على حالة المجتمع ، منها خصوصية العصروواليده الواقع التاريخي اللذان لهما تأثير على حياة الإنسان والمجتمع[1] ، لذلك تطلب النقد العقلي للحاضر والماضي على السواء ، مع معرفة الزاد الثقافي موروثاً كان أم مكتسباً ، وأن نعرف إلى أي مدى يصلح هذا الزاد في العصر الراهن ، وأن يقترن هذا الفهم بإيمان راسخ بأن الأمس غير اليوم وكل له شأنه ، ومشكلاته ، وواقعه وفكره[2] .

والهدف المتوخى من هذا البحث هو فهم التجديد كما يرى الدكتور محمد المســتيري ، وقد أشــار في كتابه إلى أن التجديد ضــرورة من ضرورات العصر ، وأن المجتمع الإسلامي ما لم يهتد إلى إبداع مفاهيم جديدة ، أو إعادة إبداع مفاهيم غيره من الأمم والشعوب المغايرة للإسلام ، سواء كانت في الشرق أو الغرب ، حتى كأنها من إبداعه ابتداءً ، فلا مطمع في أن يخرج من هذا التيه الفكري .

لقد اقتضت طبيعة البحث والأهداف المتوخاة منه تقسيمه على مقدمة وخمسة مباحث ، وانتهى بخاتمة ، تضمن المبحث الأول دراسة حول التجديد وروح العصر ، وتطرق المبحث الثاني إلى جهود التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر ، وخصص المبحث الثالثعن التجديد في فكر المســتيري بين التأصــيل والمعاصــرة ، وأما المبحث الرابع فقد حمل عنوان:في المعاصــرة والتراث،وتطرقنا فيه إلى رؤية محمد المســتيري لكيفية التجديد من خلال الموائمة بين التراث ومعطيات العصــر الحديث، وجرى في المبحث الخامس مناقشــة جدل الثابت والمتغير في فكر محمد المستيري، وكانت الخاتمة تلخيص لأهم النتائج والاستنتاجات التي توصلنا إليها في البحث .

المبحث الأول

التجديد وروح العصر

إن المتتبع لتاريخ الفكر الإنســاني عامة ، يجد أن الأفكار والمفاهيم تتطور وتتغير وتنمو بمرور الزمن ، حتى في العلوم الصــرفة التي طابعها ، عادة ، الثبات والرسوخ على قواعد واضحة ، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالعلوم الإنسانية التي تمس حاجات الإنسان ومتطلباته ، تلك الحاجات والمتطلبات التي تتغير باسـتمرار بسـبب تغير ظروف الحياة والمجتمع ، إذن ؛ ضـرورة التجديد تصـدر من الوعي بأن الحياة في حركة دائبة وتغير مسـتمر ، وكذلك هي الحقيقة، والواقع ، فالحياة سـائرة دائماً نحو التجديد ، والقرآن الكريم أعلن حرباً ضـد

[1] شوقي جلال : التراث والتاريخ ، دار سينا للنشر ، ط١ ، (القاهرة/١٩٩٥م) ، ص١١٠ .

[2] جلال شوقي : التراث والتاريخ ، ص١١١ .

الجمود والتقليد الذي يفضي إلى التحجر، لم يعلنها على أمر سواها بهذه الشدة ، ولم يهتم بشيء اهتمامه بالدعوة إلى التبصر ، والتأمل ، والتدبر .

ليس هناك شك في أنّ تأريخ الفكر الإسلامي جثمت عليه لمدة طويلة نزعة إقصائيّة عمّت مختلف تجليات ذلك الفكر ، بحيث نستطيع أن نزعم أن جُلّ الأعمال التي أرخت للفكر الإسلامي عرفت أنه متخمٌبالتقييمات والأحكام المسبقة ، أكثر ما عرفت استقصاءً وبحثاً موضوعياً ، غير أنّ المستغرب ليس وجود هذا النوع السلبي في تقييم فكر المخالف ، بل أن المستغرب هو استمرار هذه النزعة لدى جل المفكرين المسلمين .

والدكتور حسن الترابي يرى أن معايير الحق قد تتبدل بين زمان وزمان ، فيصبح ما كان مرفوضا منذ ألف سنة مقبولاً في أيامنا ، والعكس صحيح ، معبراً عن ذلك بقوله : ((لم تعد بعض صور الأحكام التي كانت تمثل الحق في معيار الدين منذ ألف سنة تحقق مقتضى الدين اليوم ، ولا توافي المقاصد التي يتوخاها ، لأن الإمكانيات قد تبدلت ، وأسباب الحياة قد تطورت ، والنتائج التي تترتب على إمضاء حكم بصورته السالفة ، قد انقلبت انقلاباً تاماً))[١] .

وفي الحقيقة أن إشكالية سؤال التجديد ، وكيف يتم التحديث في العالم الإسلامي شغلت العقول واستقطبت أقلام المفكرين ، ونشأت حول هذه الإشكالية عمارة معرفية دشنها منظرون وعلماء ومحللون ، أبدعوا نظريات ، وأسسوا مدارس ، ووضعوا مناهج للنظر والتحليل ، ولا يزالون يبدعون ويضيفون ، ويراكمون ، إغناءً وتعميقاً ، أو نقداً وتفكيكاً . والأمر كذلك أن تنطوي الأمة على ثابت ومتغير ، قديم وجديد ، محلي وأجنبي ، وتتفاوت الثقافات في حظوظها من العناصر المستمرة والمتغيرة ، القديمة والجديدة ، الموروثة والوافدة ، وأن أوزان هذه العناصر قد تتباين داخل الثقافة الواحدة من حقبة زمنية إلى أخرى .

وإذا كان السؤال هوما العمل ؟ ... فالإسلام قيمة وممارسة ، والمسلم سلوك وقدوة وأفعال ، ومن أسلموا حديثاً من أهل الغرب نُقل عن أغلبهم مقولة : إنهم لو نظروا إلى حال المسلمين ما أسلموا بسبب سوء السلوكيات ، ولكنهم نظروا إلى الجوهر والحقيقة والأصل فوجدوا في هذا الدين أجوبة شافية لحال الإنسان المعاصر ومتطلباته الروحية والمادية والاجتماعية .

وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى أنّ الواقع المتغيّر والحوادث المستجدة وسرعة التطور التي نعيشها بشكل يومي ، تجعلنا في مواجهة دائمة ومباشرة مع ضرورة التجديد في الفكر الإسلامي ، وهذا لا يعني أنّ الضرورة تبيح لنا فتح الباب على مصراعيه أمام كل دعوة للتجديد أو كل منهج يهدف إلى التجديد ، بل على العكس ، أن تزايد تلك الأهمية يتناسب طردياً مع تزايد الحاجة إلى ضبط عملية التجديد وتقنينها بالطريقة التي تجعل من التجديد وسيلة تمكّن الفكر الإسلامي من استيعاب كل مجالات الحياة ، وتجعل الاجتهاد أداة لإخضاع الواقع للشريعة ، وحينها لا يكون التجديد هدفا بنفسه ، بل وسيلة لبلوغ الغاية التي يحقق الدين من خلالها مقاصده وأهدافه .

وبصرف النظر عن موقفنا من هذا القول سواء أكان قبولاً أو رفضاً ، فإننا نرى أن الأقرب إلى الموضوعية هي تناول الأشياء من حيث هي ، لا من حيث صورتها القائمة في نفوسنا . ولذلك يمكن القول هنا : إن العوامل والأسباب التي تسهم في إيقاظ روح التجديد ، ولا سيما في ظروف الأزمات أن يتاح للفكر إمكانية أن ينتبه إلى ذاته ، ويكتشف نقاط ضعفه ، ويلتمس الحاجة إلى الإصلاح والتجديد[٢] .

ونحن نزعم أن الأسباب والنتائج ، من منظورنا ، تخضع لعجز الأمة عن رؤية الجذور التاريخية للأزمة رؤية (واضحة) باعتبار أن الثغرات الواسعة التي أدت إلى تعويق حركة النهضة الإسلامية عن مواصلة مسيرة تقدمها ، وعجز الأمة عن استعادة عافيتها الفكرية والثقافية بما يصوغ وعيها ، مرة أخرى ، بخصائصها المتميزة التي تدفعها إلى الاعتماد الذاتي ، والتناغم القيمي ، والإبداع الجمعي ، ومواجهة عصاب الدونية وعدم القدرة على التجديد، ومجاراة الحضارة الغربية[٣] .

المبحث الثاني

جهود التجديد في الفكر الإسلامي

تعود جهود التجديد في الفكر الإسلامي إلى وقت مبكر من تاريخ المسلمين ، والمتتبع لحال الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر يكتشف أننا في حاجة إلى نهضة شاملة في مجال الفكر وتجديده ، وهذا لا يتم - حسب رأينا - إلاّ بثورة على الأوضاع التقليدية وتخليص العقلية الإسلامية والواقع الإسلامي من الجمود ؛ بحيث يتم بناء منظومة فكرية إسلامية على هدي الشريعة الإسلامية ، وهنا يجب تسخير علوم العصر وتقنياته ، ولا يمكن أن تقوم هذه النهضة على غير منهج واضح ، وسبيل مرسوم ، وهذا ، بطبيعة الحال ، لا يتم بالدعوات العاطفية الفارغة أو بانفعال عام بالإسلام ، أو بالاشتغال بالجزئيات من دون النظر إلى مقاصد الدين الكلية ، إذن ، لا بد أن تقوم هذه النهضة على منهج أصول الفقه الذي ورثناه ، وليس بالنزعة المحافظة والميالة نحو التقليد والجمود التي جعلته ضيقاً لا يفي بحاجتنا اليوم ولا يستوعب حركة الحياة المعاصرة .

ولأن جوهر الخلل في الفكر الإسلامي المعاصر ، كما يرى الدكتور محمد المستيري ، يكمن في افتقار هذا الفكر إلى الرؤية الكلية الواضحة التي تمنحه القدرة على إدراك المشكلات المعاصرة في وجهها المركب ، والمتداخل، والمنساب في تاريخنا والمستقر في وجداننا ، والرؤية الكلية هي التي تتأسس على أصول معرفية وأخلاقية تميزها عن الرؤى الكلية المهيمنة في عالمنا المعاصر[٤] .

وفق هذه المسارد المعرفية التي أشرنا إليها ، يمكن القول : إن ابستيمولجيا التجديد شكلت هماً ثقافياً معرفياً طوال القرن العشرين من تاريخ العرب ، وجعلت من حقلها مساحة حية في ما يشغل المفكرين ساسة ، وأكاديميين ، ومثقفين ، وقد أخذت حيزاً أكبر في عصر العولمة . وعلى هذا فإن ممكنات الخروج من الطور المظلم ، وإعادة إصلاح مناحي العطب تكمن في الاستجابة لمتطلبات العصر ، وهذه

---

[١] تجديد الفكر الإسلامي ، دار القرافي ، ط١ ، (المغرب/١٩٩٣م) ، ص٣٨ .

[٢] زكي الميلاد : الإسلام والتجديد ، كيف يتجدد الفكر الإسلامي ؟ المركز الثقافي العربي ، ط١ ، (الدار البيضاء/٢٠٠٨م) ، ص٢٥٩ .

[٣] وليد منير : التنمية وأزمة الثقافة ، بحث منشور في كتاب الأمة وأزمة الثقافة والتنمية ، إصدار دار السلام للطباعة والنشر ، ط١ ، (القاهرة/٢٠٠٧م) ، مج١ ، ص٤٦٢ .

[٤] جدل التأصيل والمعاصرة في الفكر الإسلامي ، منشورات دار كارم الشريف ، ط١ ، (تونس/٢٠١٤م) ، ص١١ .

لن تكون ممكنة من دون إعادة تفعيل التوجه الديني وقيم الإيمان في بناء الإنسان ((لأنه لا فتوحات جديدة تلوح سوى أن يستفتح الإنسان المسلم من جديد ، من أجل أن يفُتح له أو يأتيه الفتح من الله ، ويعيد ترتيب الصلة معه ، لأن الذات من دون إيمان ، ومن دون معنويات تنتج أنماط الحياة التي لا تطاق))[١] .

ولأن الإنسان في فلسفة الإسلام لم يخلق في مرتبة وجودية واحدة ، ساكنة لا يبرحها من بداية حياته حتى مماته ، إنما هو في حركة وارتقاء دائمين ، وقد وفّر الإسلام ذلك التحرك التهذيبي ، لذلك فإن التجديد لا يمكن فهمه إلاّ في ضوء هذا الارتقاء الروحي والمادي المتجذر في النص القرآني ، قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦ ﴾[٢] .

لا يمكن طرح سؤال كيف يكون التجديد ؟ إلاّ بعد أن نفهم مبلغ الحاجة إلى التجديد ؛ فعندما يتأزم الوضع الإنساني بسبب الانغلاق أو الجهل ، أو سيادة الفكر الاستاتيكي في الحياة يبقى التجديد المنقذ الوحيد للمجتمع من ظلام ليله الدامس ؛ لأن التجديد هو ذلك البعد التنويري للدين الجوهر ، والذي تبقى كل المعاني الأخرى مجرد أعراض لا تكتسب معناها الحقيقي إلاّ إزاءه .

ومما يمكن التأكيد عليه ، أن الشريعة الإسلامية ليست كلها ثابتة ثبوتاً جامداً ، تضع الحياة الإنسانية المتغيرة في قوالب مغلقة ، بل هي تفاعل مع النشاط الإنساني بما فيه من وقائع وأحداث وعلاقات ، وليس هي نسخة واحدة أو صورة على مرّ العصور والأعوام . كذلك فإن الحداثة يجب أن تقوم على الأخذ والاقتباس من الآخر مهما كان دينه وعرقه واتجاهه الفكري ، وعلى هذا الأمر ، فإن التجديد في العالم الإسلامي لن يكتب له النجاح إذا لم يقتبس من التجربة الغربية ، طبعاً بوجهها العلمي والتقني الذي يخدم دواعي التجديد .

هناك قضية مهمة يمكن الإشارة إليها ، وهي أن الفكر الإسلامي يتعرض لمحنة كبرى ، بسبب طغيان الخطاب الماضوي المفاخر به ونكرانه للحظة المعاصرة ، فضلاً عن ذلك سيادة لغة الخلاف والاختلاف حول الطريقة التي يجب التحديث بها ، والأكثر من هذا وذاك أنَّ إشكالية المثقف في العالم الإسلامي دائماً أنه دائماً ما يرتبط بالانتماء السياسي ، حتى بات التَّسليم أنه لا يوجد من رواد الفكر في البلدان الإسلامية من يمتلك استقلالية فكرية ، أو يضع نفسه في خانة المنتمي للحق والحقيقة[٣] .

وهنا يتبادر سؤال التجديد في الفكرالإسلامي ،هل يمكن صياغة مشروع تحديثي نهضوي من دون الأخذ من عناصر الثقافة الغربية واعتمادها مشروع التجديد ؟ والسؤال الآخر هو ، هل يمكن تجاوز الأرضية الفكرية الإسلامية بامتدادها السلفي وتحولنا إلى نسخة كربونية عن الغرب ؟ نقلد ولا نجدد ، نتبع ولا نبدع ؟وهل يمكن أن يكتب للتجديد المنشود النجاح من دون النهوض بالإنسان الذي تصاغ من أجله مشاريع التجديد ؟ وهل يمكن نجاح مشروع التجديد إذ لم يعتمد على التراث والمحطات المضيئة فيه ، ويقتبس من الغرب ويواجهه في آن واحد ؟ هذه الأسئلة المهمة والخطيرة يجب النظر إليها ومحاورتها بروح المنطق ، وفلسفة العقل .

ولأن التجديد والتحديث في الفكر والسياسة والحياة بجوانبها كافة ،هو الذي يقود المسلمين إلى استعادة مجدهم ويعيد لهم كرامتهم ودورهم الحضاري الفاعل بين الأمم في الشرق والغرب . ومما يمكن الإشارة إليه أن الفكر الإسلامي وعلى الرغم من التأكيد أن محمداً ***(صلى الله عليه وسلم)*** كان خاتم الأنبياء والرسل ، إلا أن هذا الفكر أفسح المجال أمام العقل الإنساني لأن يؤدي دوره في هداية الناس إلى الحق والصراط المستقيم ، ومقاومة الانحراف والوقوف في وجه الجهل[٤] .

والتجديد وسيلة ليوافق بين الشريعة وتطورات العصر ، وهذا ما أكده القرضاوي[٥]مستشهداً بذلك بعددٍ من أقوال وأفعال الرسول محمد ***(صلى الله عليه وسلم)*** التي كانت تتوافق مع روح العصر ، ومصلحة الدولة السياسية والاقتصادية آنذاك ، ومثّلَ القرضاوي لذلك بتقدير الرسول***(صلى الله عليه وسلم)***لنصاب البقر ، وعفوهِ عن زكاة الخيل ، ويرى القرضاوي أن ذلك إنما صدر عن النبي محمد ***(صلى الله عليه وسلم)***، بوصفهإماماً هادياً يشرع للمسلمين ما يوافق زمانهم[٦] ، ولذلك فإن التجديد يرتبط عادةً ، بواقع الحياة ومعطيات العصر ، لأن لكل عصر خصوصيته ودرجة تطوره وتقبله للتجديد ، وعلى هذا القول : وجب على المجددين أن يكتبوا مقالاتهم العلمية الواقعية ، ولا يتحدثوا عن الأمور النظرية العامة ، حتى يمكن أن يمتزج الواقع مع التنظير امتزاجاً حياً ، وتكون جهود المجددين ذات صبغة واقعية تتوافق مع حاجات المسلمين[٧] .

إن تقبل الفكر المعارض والحوار الهادي من سمات الإسلام ، فقدحفل تاريخ المسلمين بوجود المعارضة سواء كانت على مستوى الأفراد ، أو ظهور الفرقة التي كانت مجموعة من آرائها تصل إلى محاولة لهدم الدين الإسلامي ، لكن المسلمين تقبلوا هذا الفكر المعارض لاعتقادهم أن من علامات ضعف الدولة إرهاب المخالف والحجر على أفكاره ، ومنعه من التعبير عمّا يجول في خاطره ، ومن علامات قوتها السعة في الفهم وتقبل الرأي المخالف ، والحرية الفكرية من مفاخر الدولة الإسلامية ، وليس أدل على ذلكمنوجود الزنادقة وأهل الكفر والإلحاد ، ((وقد تحملت الحياة الفكرية والعقلية عبث عمر بن أبي ربيعة ، وتهجم ابن الراوندي ، وتحملت تأملات أبي العلاء وحيرته وشكوكه ، وتحملت شعر أبي نواس ومجونه ، وأحاديث الجاحظ وتفضيل بشار بن برد لإبليس على آدم ، بل تحملت ما هو أبعد من ذلك كآراء القرامطة والباطنية والزط))[٨].

والأكثر من ذلك أنَّ التجديد الفكري والإصلاحية الإسلامية المعاصرة تعد حركة تنويرية تصدر عن وعي عميق بالصيرورة والتقدم التاريخيين ، وإلى مثل هذا المعنى أشار الفاسي ، بقوله : ((والذي ينظر في تاريخ الحركات العامة في الدنيا كلها ؛ يجد أنه لم تقم ثورة مفيدة في بلد ما إلا سبقتها دعوة للرجوع إلى الماضي البعيد ، ذلك أن الرجوع الذي يظهر في شكل تقهقر إلى الوراء هو نفسه تحرر كبير

---

[١] عبد الرزاق بلعقروز : أزمة الحداثة ورِهانات الخطاب الإسلامي ، منتدى المعارف ، ط١، (بيروت/٢٠١٣م) ، ص١٥.
[٢] سورة الانشقاق ، آية : ٦ .
[٣] عبد القادر عرفة : المدينة والسياسة ، مركز الكتاب للنشر ، ط١ ، (القاهرة/٢٠٠٦م) ، ص٣٣٩ .
[٤] معن زيادة : معالم على طريق تحديث الفكر العربي ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، (الكويت/١٩٨٧م) ، ص١٠٢ .
[٥] السنة مصدراً للمعرفة والحضارة ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، (بيروت/١٩٩٦م) ، ص٤٤٦ .
[٦] السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، ص٤٤٦ .
[٧] حسن الترابي : تجديد الفكر الإسلامي، ص١٥ .
[٨] محمود الشرقاوي : التطور روح الشريعة الإسلامية ، المكتبة العصرية ، (بيروت/١٩٦٩م) ، ص٩٣ .

من أشياء كثيرة وضعتها الأجيال العديدة والعصور المختلفة ، وإن التحرر منها وإزالتها من الطريق يفتح أفقاً عالياً يهدي السائرين للغاية الصحيحة التي يجب أن يوجهوا أنفسهم إليها))[١].

إن تغيير الإسلام لا يعني نسخه أو تقديم بديل عنه ، وهذا غير ممكن ، كما يرى الأستاذ عبد الكريم زيدان : ((لأن القاعدة الشرعية في النسخ أن يكون الناسخ بقوة المنسوخ ، وحيث إن الإسلام وهو دين من عند الله تعالى ، وهذا يستلزم أن يبعث الله تعالى رسولاً يأتي بهذا الدين الجديد من عند الله تعالى ، وهذا غير ممكن مطلقاً))[٢] ، لأن الله **(جل جلاله)** أخبرنا في محكم كتابه بأن لا نبي بعد الرسول محمد **(صلى الله عليه وسلم)** ،قَالَ تَعَالَىٰ:﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [٣] . وكلمة تجديد ، تعني تكوين ظروف الاستمرارية ، وتجديد الفكر يعني استمرارية الإيمان بصلاحية ذلك الفكر لكي يكون أداةً لتوجيه الإنسان وهدايته ، وفق هذا المنطلق يكون التجديد مطلباً ملحّاً ، لأنه يمثل العلاقة بين الإنسان والفكر، فإذا توقفت عوامل التواصل بين الإنسان والفكر جمد الفكر وتراجع دوره ، والتجديد هو أداة التواصُل ، لأنه يعطي للفكرة بعدها الزمني ، عن طريق ربط تلك الفكرة بالرؤية المتجددة التي تمنحها القدرة على الاستمرار والبقاء والصمود في وجه التطورات المستحدثة التي يفرضها الواقع الجديد ، وتألفها الأجيال اللاحقة .

ولتأكيد هذا الأمر نقول : إننا بحاجة إلى إقامة الدليل على أهمية التجديد بالنسبة للفكر ، فالتجديد هو وسيلة الاستمرار ، لأن العقل البشري من حقه أن يباشر مسؤولياته في فهم الظواهر الإنسانية ، وأن يفسرها بما يراه ويعتقد ، وهو يمارس بذلك صلاحيات مشروعة ، وليس من الإنصاف أن ينكر جيل سابق على جيل لاحق حقه في ممارسة رؤيته المتجددة لقضاياه الفكرية . والتجديد كما يرى محمد الغزالي ، في الفكر الإسلامي وليس التجديد في الإسلام ، ((لأن الفكر الإسلامي يتمثل فيما أنتجه المسلمون من علوم ومعارف واجتهادات على طريق تفسير الإسلام وفهمه وشرح أحكامه ، أما الإسلام فهو الوحي الإلهي في الكتاب والسنة الثابتة))[٤].

المبحث الثالث

التجديد في فكر المستيري

إن القراءة المتأنية لكتاب الدكتور محمد المستيري تُظهر لنا أنه كتابٌ إشكالي ، ذلك أن معظم فصول الكتاب تناقش قضية التجديد في الفكر الإسلامي من منظور أن الحياة والوجود في تغيير مستمر ، وهذا التغيير يحتاج دائماً إلى من يستنبط الحلول والأحكام لتتوافق مع فكرة التجديد من دون المساس بالأصول والثوابت الفقهية والعقدية .

والمستيري يدرك ماذا يعني طرح الأسئلة التي كانت تنمو في ذات الفكر الإسلامي ، ثم ترتبط بأجوبة لم يربطها بالمتغير الزماني والمكاني أي رابط ، فأصبح الإنسان المسلم يعيش في القرن الحادي والعشرين ، وعقله لم يتجاوز أسوار القرن الرابع الهجري ، مبيناً أنّ تجديد منظومة القيم الإسلامية هو المدخل الرئيس لاستعادة الدور الحضاري للمعارف الإسلامية ، لأن صفة الإسلامية في العلوم والمعارف تنزع إلى الفلكلورية[٥].

والمؤلف يحاول بطريقة استقرائية إنقاذ الينابيع الروحية والعلمية والفكرية في الحضارة الإسلامية ، لأن العقل المسلم الجامد المؤمن بسكونية الزمن ووقف حركة الكون ، وهذا كله أدى إلى استبعاد الكليات القيمية القادرة على تفعيل طاقة التحضر ، على اعتبار أن التحضر طاقة تحرك الشعوب نحو بناء ثقافة مرنة تتناغم مع الوجود الإنساني المرهون بالزمان والمكان.

يدعو المستيري إلى السير باتجاه المستقبل الذي تنمو فيه المعرفة اليقينية نمواً مذهلاً ، ويحارب التقوقع في كهوف الماضي ، وهو يريد أيضاً تحرير المجتمع الإسلامي من تجميد الوعي الديني والتقوقع على النصوص الفقهية من دون الأخذ بالضرورات ، وهو يعتقد أن أصحاب هذه الرؤى يحاولون احتلال المستقبل بعد أن سيطروا على الماضي والحاضر ، ويؤكد أن الماضي مهما كان مشرقاً فهو لا يستطيع إنقاذ الإنسان في العالم الإسلامي من واقعه المزري ، لأن منظومة القيم المعرفية لا تتوقف ، بل هي قائمة على الإضافات التي لا تقبل النقض بسبب من وضوحها[٦].

إن داء المجتمعات الإسلامية هو ثالوث الجهل والفقر والاستبداد ،وهذا يقف سداً مانعاً أمام التجديد ، لأن فكرة التجديد ليست أيدلوجية انقلابيّة ، ولا هي برنامج سياسي أو دعوة وعظية ، بل هي في عمقها الحضاري البنائي ، حركة تحرير لطاقات الإنسان الإبداعية ، كي يستعيد دوره الإيجابي في حركة التاريخ[٧] . ومن غير الممكن تصور منهج التجديد بدون تحرير الإنسان في العالم الإسلامي من هذا الثالوث.

يتبين لنا أن فكرة التجديد كما تصورها محمد المستيري تتمثل في إيجاد صيغ ومقاربات فكرية تعتمد المصادر الإسلامية ، سواء أكانت هذه الصيغ جديدة في موضوعاتها ، أو أنها معالجات لموضوعات قديمة ، أو أنها إعادة لتنظيم أفكار موروثة ؛ والمهم هو أن تكون هذه الصيغ إجاباتعن جميع التساؤلات التي تتطلبها فكرة التجديد ، وقادرة أيضاً على تلبية الحاجات المتغيرة التي تفرضها تحولات الزمان والمكان.

والتجديد عند محمد المستيري يعني استنهاض المسلمين من غيبوبتهم الحضارية ، وهذا يتطلب قراءة حراكية لخلل الذات تنأى بها عن الوصفية الساكنة لتنفذ بها إلى فقه الإعاقة في عناصر الدفع الحضاري للأمة وتلك هي العناصر اللازمة لاستعادة دورها التدافعي

---

[١] علال الفاسي : التيارات الأيدلوجية في العالم العربي ، إعداد : عبد العلي الودغيري ، مطبعة النجاح ، ط١ ، (الدار البيضاء/٢٠٠٠م) ، ص١٥٥ .

[٢] عبد الكريم زيدان :نظرية التجديد في الفكر الإسلامي ، لا. مط ، (د. ب/ د. ت) ، ص٢ .

[٣] سورة الأحزاب ، آية : ٤٠ .

[٤] ليس من الإسلام ، دار القلم ، ط١ ، (بيروت/١٩٩٧م) ، ص١٣٥-١٣٦.

[٥] محمد المستيري : جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١٩ .

[٦] محمد المستيري : جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٥٤ .

[٧] محمد المستيري : جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٥٥ .

التاريخي[١] . وبهذا يكون بناء وتقنين أحكام الشريعة ليس مقصوراً على الفقهاء والمشرعين ، بل هو من حق المجددين يستعملونها حين يرون قصور أحكام الشريعة عن تحقيق المصالح ، ((أما التغيير لحكم لم ينسخ نصه من قبل الشارع ، فقد أجازته الشريعة للمجتهدين ، من قضاة ومفتين تبعاً لتغير المصالح في الأزمان))[٢].

ولذلك يذهب محمد المستيري إلى تأكيد القول : إن تجديد النظر في منظومة القيم المؤسّسة للمجتمع المسلم المعاصر الحامل لرسالة التحضر ، هو المدخل الرئيس لاستعادة الدور الحضاري للمعارف الإسلامية ، إذ صفة الإسلامية في العلوم والمعارف اليوم تنزع إلى الانكفاء على الماضي والتنظير السلفي[٣] .

ولأن غلبة العقل الإجرائي والإفتائي على إدراك مشكلات الذات الإسلامية ضمن تحديات التاريخ ، أدّى إلى استبعاد الكليات القيمية للذات ولدورها المنشود حضارياً ، وتشكّل الكلّيات القيمية جوهر نظم الأخلاقيات في ثقافة الشعوب ، القادرة على تفعيل طاقات التحضر ، فالتحضر هو قدرة فائقة على تمثّل النموذج ضمن معايير المجتمع المسلم في جميع انشغالاته[٤] .

يتوسع المستيري في توضيح مفهوم التجديد ، ويتبنى الدعوة بجرأة إلى تطويع أحكام الدين لمجاراة ظروف وأحكام العصر فيلتمس الأسس الأولية التي يريد أن يقيم عليها فكرته عن التجديد ، فيتحدث مثلاً عن الحياة الإسلامية الجماعية وكيف انحرفت عن مقتضى شرع الإسلام في الحياة العامة[٥].

يذهب المستيري إلى تأكيد القول بأن غياب القراءات الموضوعية للثابت في أصول الإسلام يحوّل الانشطار في تناول الإرادتين الإلهية والإنسانية ، أو المسؤوليتين الخلقية والاجتهادية إلى وحدة معنوية ، أو وحدة قيمة يكون فيها الله أصل المبتدأ والمنتهى ، ويكون فيها الإنسان مناط التكليف بينهما ، لذلك ارتهن الفكر الإسلامي في أغلب مراحل تطوّره بالمنهج الدفاعي عن العقيدة[٦]، ولهذا يعتقد المستيري أن مهمة المجددين في الإسلام هي استنباط أحكام جديدة تتوافق مع اللحظة الراهنة التي يعيشها المسلمون ، لأن الخلل فيما يتعلق بحال المسلمين هو خلل مركب ومعقد ، ليس بالمفرد ولا بالبسيط[٧] ، وعلى رأي المستيري أن العقل المسلم لم يستفق بعد من ذهوله أمام الحداثة الغربية وما أفرزته من تحديات هي استمرار للتحديات التي عانى منها في مواجهته الحضارية بأشكالها المختلفة وكان آخرها مواجهة التبعية التي مثلتها العولمة بصورة جلية[٨] .

والتجديد كما هو في كتاب المستيري شرط لأصالة التديّن واستمراره ، وإذا لم يتحقق التجديد جيلاً بعد جيل أنحجب نور الهداية ، ولذا نجد أن الشريعة الإسلامية حفظت الاتصال بالفرائض والسنن كي يتجدد أثرها في إمداد الإنسان المؤمن بالزاد الروحي الموصول[٩] .

المبحث الرابع

المعاصرة والتراث في فكر المستيري

من المعلوم أن منهج التفكير في الإسلام منهج واقعي ، يحاكي متطلبات الحياة ومستجداتها ، حتى القرآن الكريم في نزوله حاكى هذه المقولة ، فلم يأتِ القرآن الكريم أبواباً مبوبة ، ولا ألواحاً تنزل في وقت واحد ، وإنما نزل منجماً على الأحداث ، تقع الواقعة ويقف الناس منها مواقف متباينة ، ثم يأتي حكم الله بالقول الفصل . وهكذا كانت السنة النبوية ، ، وكان الرسول محمد ***(صلى الله عليه وسلم)*** قليلاً ما يقف في الناس خطيباً يعرض عليهم - عرضاً نظرياً – وإنما كان يعلمهم ما يستجد من تعاليم هي استجابة لحاجات الناس وظروف تطور الحياة .

من هذا المنطلق دعا محمّد المستيري إلى ضرورة التجديد والاجتهاد ، وهما في رأيه ، ضرورة حتمية ، وحاجة ملحة تفرضها ظروف العصر الذين يعيشه المسلمون ، بل هو حاجة ملحة لحيوية هذا الدين (الإسلام) واستمراره[١٠]، وينتقد محمّد المستيري سيادة نمط من التجديد في الفكر الإسلامي ، إذ هو لم يتجاوز سطح الواقع ، إلى ما يرقد تحته من أنظمة عقلية ، ومعرفية ، وعلى هذا المنوال يرى أن يكون التجديد له القدرة على التأثير فيها[١١] ، ويؤكد أن سيادة هذا النمط من التجديد ترتبط بحقيقة مهمة ومفصلية لا يمكن إهمالها ، وهي أن التجديد يجب أن ينصب على تطوير أساليب التفكير لدى المجددين على وجه الخصوص ، بحيث تكون فكرة التجديد نابعة من داخل النص الديني ، موافقة للشريعة الإسلامية ، وانطلاقاً منها[١٢] .

يباشر محمّد المستيري نظريته حول التجديد فيلتمس الأسس الأولية التي يريد أن يقيم عليها فكرته، فيتحدث مثلاً عن الحياة الإسلامية الجماعية وكيف انحرفت عن مقتضى التجديد[١٣] ، وبهذا النمط نجد الفتاوى المتاحة تهدي الفرد المسلم إلى كيف يبيع ويشتري ، ولكنها لا تتعرض بالتفصيل إلى القضايا السياسية ، مثلاً ، أو كيف تدار حياة المجتمع بأسره إنتاجاً وتوزيعاً واستيراداً ، وعلاج غلاء الحياة أو خفض تكاليفها ، وهذه القضايا لم يوليها المجددون في الفكر الإسلامي اهتماماً ، ومثلها الأوضاع السياسية وتدابيرها العلمية ، وكيف تدور الشورى في المجتمع ، وكيف يتبلور إجماع المسلمين ، وكيف يكون الأمر والطاعة والولاية العامة ، وهذه الغفلة - حسب رأينا – كان سببها الحكومات الإسلامية ، لأنها انحرفت عن مقتضى العقيدة والشريعة الإسلامية .

---

[١] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٥٣ .
[٢] فتحي عثمان : الفكر الإسلامي والتطور ، دار المعرفة ، (القاهرة/١٩٨٦م) ، ص١٠٢ .
[٣] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١٩ .
[٤] محمد المستيري : جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١٨ .
[٥] جدل التأصيلوالمعاصرة ، ص٣٣ .
[٦] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٣٢ .
[٧] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٢٣ .
[٨] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٢٣ .
[٩] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٧٢ .
[١٠] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٦٤ .
[١١] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١٢٨ .
[١٢] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١٩٣ .
[١٣] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٠٧ .

وعلى هذا النحو ، يرى المستيري أن التعامل مع الموروث الثقافي هو تواصل مع الذاكرة الجمعية ، وتجذر في الهوية ، وهو المنطلق الأساس للتجديد ، لأن هذا التواصل يحمل مشروعاً قيماً ، وفيه تطلع لمستقبل أكثر رقياً ، لأن النظر في التاريخ وسير الأقدمين هو أصل ثابت في منهجالتجديد ، وهو يقود إلى خيرية الإنسان ووحدة قيمه ، التي تمنع الانقطاع في مسيرة الإنسان المسلم بالشكل الذي يؤدي إلى تصادم بين التراث والحداثة[١] .

ولأن التراث الفكري الإسلامي يواجه تغيّرات معاصرة كبرى تجعله غير متهيئ لقضايا العصر ، لأنه قد أنهى مهمّته في محاولة الإجابة عن قضايا عصره ، ولا يحمل في نفسه صلاحية أزليّة ، مثل صلاحية القرآن الكريم بعدّه عملاً اجتهادياً بشرياً ، في حين أن القرآن الكريم تنزيل رباني ، لا يأتيه الباطل أبداً[٢].

وفي عرضه للمعاصرة والتراث يرى المستيري أن الحداثة إرثٌ إنسانيٌّ ،وليست بالضرورة خطراً على الأصالة والتراث ، وليستمشروعاًمقابلالتأصيل ، بل هي جزء أساسفي عملية التأصيل الذي بقدر حياده عن فهم التنزيل يضعف تصوره للمفاهيم[٣].

والتأصيل بحسب اعتقاد المستيري هو البحث في أصول الفكرة ومبادئها ومقاصدها لغاية إحياء صلاحيتها لواقع زماني ومكاني جديد ، فهو إذن ، عمل تجديدي يستبعد التقليدية والحرفية والماضوية ، ويفرض نباهة العقل المراعي للمصلحة العامة ، ولذلك فإن التعامل مع الموروث الثقافي هو تواصل مع الذاكرة ، وتجذّر في الهوية ، وهو المنطلق الأساس لأية معاصرة تحمل مشروعاً قيمياً وتتطلع لمستقبل إنساني راق[٤].

وفي معرض تأصيله لموضوع جدل التراث والمعاصرة يرى المستيري أن التراث الفكري الإسلامي ((يواجه تغيرات معاصرة كبرى تجعله غير متهيّئ لقضايا العصر ، لأنه قد أنهى مهمته في محاولة الإجابة عن قضايا عصره ، ولا يحمل في ذاته صلاحية أزليّة مثل صلاحية القرآن الكريم باعتباره عملاً اجتهادياً بشرياً))[٥] ، إذن لا يمكن الإجابة عن جميع المشكلات التي تواجه المسلمين في العصر الحاضر من خلال استنطاق التراث ، وإنما الاستفادة من المناهج التي استعملها في الإجابة عن مشكلات عصره ، وربما إحياء وتأهيل أمثلة من هذه الإجابات التي يمكن أن تستجيب من جديد لحاجات زماننا[٦].

قارن المستيري بين القرن الرابع للهجرة والعصر الحاضر ، ولا سيما في المقادير المعيشية والعرفية في تحديد الزكاة ، وتفصيلات الزواج ، وما إلى ذلك من أمثلة في التراث الفقهي ، مبيناً الحاجة اليوم إلى لحظة معاصرة أصيلة وغير متنكرةللتراث ، متجذّرة في الواقع ومتطلّعة لغد تحكمه القيم العليا لصالح الإنسان ، أي إنسان[٧].

والمقارنة في جدل التأصيل والمعاصرة بين ما حصل في أوربا وما هو حاصل في العالم الإسلامي قديماً وحديثاً ، فيه اختلاف ، فالعلم النقلي الذي كان يتمسك به رجال الدين في أوربا أبان عصر الإصلاح قد انتصر في الجولة الأولى ، وأوقف حركة التغيير التي دعا إليها علماء متنورون ، ولا سيما حين فرض أصحاب الكنيسة رؤاهم على رواد التجديد الذين اتخذوا النظر العقلي أداة من أجل الوصول إلى الحقائق والبراهين لجميع العلوم والمعارف سواء الدينية منها أو الدنيوية ؛ وعلى هذا ابتدع القائمون على الكنيسة من رجال الدين رؤاهم وتعاليمهم عن الفلك ودوران الأرض وكرويتها ومركزها[٨] . أما في العالم الإسلامي فقد نجح المعتزلة - باعتبارهم من المجددين - في مسعاهم العقلي وهزموا أصحاب المنهج النقلي ،إلا أنهم اغتروا بنجاحهم هذا ، شيئا ما ، وأرادوا أن ينفذوا عقلهم فوق الشرع ، وأن يوجبوا بحكم العقل واجبات معينة ، لذلك اشتدَّ عليهم الأشاعرة بأن كبلوا العقل ، مما أدى بالنتيجة إلى توقف حركةالاعتزال ، وظهر المنهج النقلي من جديد[٩]، من هنا يريد المستيري الوصول إلى حقيقة ؛ وهي أن التجديد في الفكر الإسلامي كان ينحو إلى مجاراة روح العصر ، وعدم تجاوزه[١٠] .

المبحث الخامس

جدل الثابت والمتغير في فكر المستيري

في كتاب(جدل التأصيل والمعاصرة) تأكيد على جملة حقائق منها :إن التجديد يشمل الفروع ولا يتطرق إلى الثوابت ، فضلاً عن ذلك فإن الله خلق بيئة الوجود المحيطة بالإنسان في إطار ظرفي الزمان والمكان ، وهي تتحرك وتتحول عبر الزمان ، تطرأ ظروف وتزول ، وتضيق ظروفها وتتسع وتشتد وتتقلب أحوالها ، ولكنها تتحول في أطر ثابتة من الله ***(سبحانه وتعالى)*** ، وهي تجري لمستقر وتتحرك بنمط راتب في الطبيعة والمجتمع.

لذلك يبقى الثابت والمتحول في فكر المستيري يتصل بالفكر الديني ،وما دام الدين من حيث خطابه للإنسان واقعاً في الإطار الظرفي لا بد أن يعتريه شيء من أحوال الحركة الكونية ، ولكنه من حيث صلته بالله سببٌ للحياة الآخرة متعلق بالأزل المطلق الثابت ، والأمر على حسب رأي المستيري ؛ إنما يؤسس على أصول وسنن ثابتة لا تتحول ولا تتبدل ، وهو بهذا ، وذاك قائم على رد الشأن الظرفي المتحول إلى الحق الثابت ، ورد الفعل إلى المقصد اللانهائي[١١] .

---

(١) جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٣١ .
(٢) محمّد المستيري : جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٣١ .
(٣) جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٣٠ .
(٤) جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٣١ .
(٥) جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٣١ .
(٦) جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٣١ .
(٧) جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٣١ .
(٨) حسن الترابي :تجديد الفكر الإسلامي ، ص١٠ .
(٩) حسن الترابي :تجديد الفكر الإسلامي ، ص١١ .
(١٠) جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٢٩ .
(١١) جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١٤٦ .

يذهب المستيري للتأكيد على أن المتحول لا يعني النسخ ، لأن النسخ لا يتم إلاّ بوحي من الله(سبحانه وتعالى)فيكون الثابت هنا في الأصول ، وأما المتحول فهي القضايا الفرعية لذلك تظل الدعوة إلى التجديد في الفكر الإسلامي بعدّه أولوية قادرة على التأثير على نمط التفكير أو الفعل المعاصرين[١] ، ولذلك فإن التجديد ليس عملية تركيبية ، بل إبداعية ، فكما أنها لا تعني تحديث التراث ، فإنها كذلك لا تعني عصرنة النص ، وإنما القراءة فيه بعين معاصرة ، والعين المعاصرة هي المعرفة والتجربة الشاملتان لهموم العصر ، والموروث ، القادرتان على نسج التواصل بينهما ضمن وحدة فلسفية وروحية[٢] .

ينتقد المستيري نظريات التجديد التي تعرضت للفكر الإسلامي بقوله:((لقد تكلست فكرة الإصلاح الإسلامي وتصدأ آلياتها وأدواتها المنهجية ولم تعد قادرة على تمثّل النموذجية الحضاريّة الإسلاميّة الشاملة المنتجة للمعاصرة والمتصدرة لها ، فالمرجعية المذهبية والمنهج التجزيئي وفكرة القيادة الأسطورية أحالت الإصلاح إلى كوميديا باكية وراقصة لولبية وترنيمة صامتة ، مشلولة الإرادة ، تائهة الاتجاه))[٣].

والمستيري يرى أنّ الرد على المشروع التغريبي يفترض دراسة علميّة نقديّة عميقة لأصوله ومناهجه وعلومه وسياقه التاريخي ، وذلك ضمن مشروع الاستغراب أو نقد الحداثة من منظور إسلامي[٤] ، وعلى ذلك تكون المقاربة الإسلامية سواء كانت تأصيلية أم تنموية تفرض بدورها الالتزام بمنهجية إسلامية في تناول الإنتاج الغربي ، لأن الصفة الإسلامية للاستغراب هي صفة منهجية ومرجعيّة ، وهي صفة لازمة حتى تحقّق دراسة الغرب أغراضها الإسلامية الحضارية .

إن الاعتقاد حول مدى عدّ التجديد بالاعتماد على معطيات الحضارة الغربية نقيضاًللأصالة أو تنكراً للسلف ، هو بحد نفسه موقف رافض للتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر ، لأنه يعيق صفة المعاصرة داخل هذا الفكر ويمنعه من التقدم نحو الإسهام في مساقات التغيير والتطور المطلوبين في الفكر الإسلامي واستشراف ما بعد الحداثة الجارية داخل الفكر الإنساني عامةً لأنَّ الفكر الغربي أحد عناصر الانطلاق في تشكيل وجهة كلية للاجتهاد يضاف إلى عنصري التراث والنص[٥] .

وهكذا فإن أختلاف الإطار الثقافي أو الاجتماعي أو المادي في المجتمع قد يثير معضلات جديدة ، وقضايا فقهية حادثة لا يجد المسلمون فيها هدى من نص الشريعة المباشر ، ولا من الفقه الموروث ، مما يستدعي من المجددين اللجوء إلى الأصول الشرعية لاستنباط قواعد فقهية جديدة ، لأن الشريعة والحال كذلك ؛ لم تأتِ بأحكام وتقريرات مطلقة ، بل تنزلت بأحكام حية على واقع متحول منسوبة إلى أسبابه وأحداثه ، موصولة بالمقاصد المبتغاة فيه ، وتناط معانيها وأحكامها بأوضاع في الوجود ، أو بمعانٍ في الإنسان ، في حين أنها تناط أحياناً بقاعدة ظرفية قد تثبت ، وقد تزول ، فتزول معها الأحكام .

وبمقتضى هذا الفهم لم يعالج المجددون في الفكر الإسلامي كثيراً من قضايا الحياة العامة ـــــ التي توافق منطق الثابت والمتحول ـــــ وإنما كانوا يجلسون مجالس العلم التقليدية ولذلك كانت الحياة العامة تدور بعيداً عنهم ولا يأتيهم إلاّالمستفتون من أصحاب الشأن الخاص ، وهؤلاء يأتون بقضايا فردية في أغلب الأحيان ، لذلك كان الثابت والمتحول عندهم فتاوى فرعية ، وقليلاً ما كانوا يكتبون الكتب المنهجية النظرية ، بل كانت المحررات تدويناً للنظر الفقهي حول قضايا طرحها أفراد لهم ظروف حياة خاصة ، لذلك كان التجديد يدور حول القضايا التي تتعلق بالشعائر والآداب العامة .

والتأصيل في الثابت والمتحول عند المستيري ليس الإيمان بالأصول المعرفية والأخلاقية التي انفردت بها لحظة الحضارة الإسلامية فحسب ، أو حنين وجداني إليها ، أو حتى محاولة عقلنتها ، إنما هي عملية مركبة لفهم معاصر تاريخي لها يعيد صياغتها بالشكل الذي يؤسس للحظة حضارية تستجيب لمتطلبات الحاضر[٦] وعندئذٍ يكون الثابت معاصراً ، مع التأكيد على نفي أية مقاربة ماضوية أو تقديسية للفكر الذي هو لحظة إبداع تاريخية ، إذ لم ينتج فكر الحضارة الإسلامية إلاّ لمعاصرته . والمعاصرة بهذا المعنى التاريخي الحضاري هي شرط حياة الفكر وحيويته وإبداعه[٧] .

من أجل هذا كله ، يؤمن المستيري بمقاربة شرطية (جدلية نهضة الفكر لنهضة الحضارة) ، نهضة يتحول فيها الفكر إلى إطار معرفي وأخلاقي يجدد ثابت القيمة الكونية في الإنسان[٨] ، وإلى ثقافة يتسق فيها التعقل مع فاضلية الروح ، والتحضر هو روح الفكر ومقصده ، وإلاّ تحول الفكر إلى عائق أمام التجديد بل وخطر عليه ، ولا ريب أن النظر في أصول الدين وجوهريه الروحي والإنساني يسير على منهج النبوة في الاستخلاف والإصلاح والشهود الحضاري .

وفي تبيان الثابت في الفكر الإسلامي المعاصر يرى محمّد المستيريأن المستوى التأصيلي النظري لجميع مجالات الفكر الإسلامي المعاصر ، الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والتربوي والنفسي والتاريخي والفقهي والقانوني ،جميعاً تتأسس على الأصول العقدية والمنهجية لوجهة تجديد الفكر الإسلامي[٩].

وتأكيداً لذلك فإن المتحول عند المستيري هو القدرة على النظر في المقاصد الكبرى من الدين ، عقيدة وشريعة ، والقدرة كذلك على فهم مقاصد الأذساق الفلسفية المعاصرة المهيمنة على خطاب التجديد ، وعلى مناقشتها من منطلق الخلفية الإسلاميّة ، بغية وضع صيغ بديلة مهيمنة عليهافي مستويات أخلاقيّة وواقعية ، وهي صفات تفرض الجمع بين أصول الدين وحكمة الفلسفة ، مع الأخذ بالنظر المنهجيوالمفاهيمي ، لأن مهمة التجديد في الفكر الإسلامي المعاصر هو استنباط الأحكام داخل الفكر الإنساني المعاصر[١٠].

---

[١] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١٤٦.
[٢] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١٤٦.
[٣] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٢٤ .
[٤] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٢٨ .
[٤] محمد المستيري : جدل التأصيل والمعاصرة في الفكر الإسلامي ، ص٤٩ .
[٦] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١١ .
[٧] محمّد المستيري : جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١١ .
[٨] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١٣ .
[٩] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١٣٣ .
[١٠] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص١٣٤ ـ ١٣٥.

من هنا ، يعتقد المستيري أن النهضة المنشودة في العالم الإسلامي ، هي نهضة قيميّة ، من شروط نجاحها أن يتصالح فيها الفكري مع الروحي ، من أجل الإنسان وكرامته ، التي على أساسها تبنى مظاهر الحضارة نحو تأمين السلم والعدل والحريّة للجميع ، وهو نقيض نفايات الحضارة المعاصرة إذ تهددها القنبلة النووية ، وحروب التطهير العرقي ، والبطالة والفقر ، وقوة القطب الواحد ، وما إلى ذلك من مؤشرات اختلال التوازن بين الغرب المتطور وبلدان العالم الثالث التي تراوح محلها[١].

الخاتمة

بعد أن أكملنا هذا البحث نضع خاتمة نلخص فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها ، وهي الآتي :-

أولاً:-إن العالم الإسلامي بحاجة إلى نهضة شاملة في مجال الفكر الإسلامي وتجديده ، ونحن نعتقد أن ذلك لا يتم إلاّ بثورة على الأوضاع التقليدية وتخليص العقلية الإسلامية والواقع الإسلامي من الجمود ؛ بحيث يتم بناء منظومة فكرية إسلامية على هدى الشريعة الإسلامية ، تسخر من أجل ذلك علوم العصر وتقنياته ، ولا يمكن أن تقوم هذه النهضة على غير منهج ، أو بانفعال، أوالاشتغال بالجزئيات من دون النظر إلى مقاصد الدين الكلية .

ثانياً:-مهما اتفقنا أو اختلفنا مع تحليلات محمد المستيري في موضوع التجديد يظل هذا المفكر ومؤلفه يشكلان إسهاماً متميزاً في موضوع التجديد ، وفي القضايا التي تأخذ أبعاداً معرفية وثقافية وتاريخية وتحديثية ، ومما يمكن الإشارة إليه أن الكتاب يؤشر وفي مواضع كثيرة أن المسلمين بحاجة إلى التجديد والأخذ بمعطيات العصر وعدم الانكفاء على الماضي ، والعمل على إنتاج مجتمع حداثوي ، يستمد من الماضي أبعاده الروحية ، ويأخذ بتطورات العصر وقيمه العلمية والثقافية والحضارية . لقد جاءت محاولة محمد المستيري ثرية ، عميقة بمناقشاتها الدينية والفلسفية ، القديمة والحديثة ، كذلك ، مكثفة بالأفكار والبراهين العقلية ، والنقلية ، فكشفت عن ثقافة واسعة ، ومرونة بالمعرفة ، في محاولة منه لتجديد الأسس الفكرية والفلسفية لموضوع جدل التأصيل والمعاصرة في الفكر الإسلامي ، مع إعادة النظر في كثير من الأسس الفكرية والفلسفية ، ومحاولة إصلاحها ، مع عناية بتركيز وتنظيم الأفكار التي حاول تأكيدها وجمع البراهين والأدلة للاستدلال عليها ، وكان الطابع الفلسفي يغلب على كتابه ، حتى أنها تغلب كثيراً على عناصر البناء المنهجي للكتاب .

ثالثاً:- من المعلوم إننا في حاجة إلى نهضة شاملة في مجال الفكر الإسلامي وتجديده ، وهذا لا يتم إلا بثورة على الأوضاع التقليدية وتخليص العقلية الإسلامية والواقع الإسلامي من الجمود ؛ بحيث يتم بناء منظومة فكرية إسلامية على هدى الشريعة الإسلامية ، ولا يمكن أن تقوم هذه النهضة على غير منهج واضح ، وسبيل مرسوم ، وهذا لا يتم بالدعوات العاطفية الفارغة أو بانفعال عام بالإسلام ، أو بالاشتغال بالجزئيات دون النظر إلى مقاصد الدين الكلية ، إذن ، لا بد أن تقوم هذه النهضة على منهج أصول الفقه الذي ورثناه ، وليس بالنزعة الإسلامية المحافظة والميالة نحو التقليد والجمود والتي جعلته ضيقاً لا يفي بحاجتنا اليوم ولا يستوعب حركة الحياة المعاصرة .

رابعاً:- شرح محمد المستيري في كتابه جدل التأصيل والمعاصر طبيعة البواعث والسياقات الذاتية والموضوعية التي حرضته على تبني فكرة تجديد الأسس النظرية والفلسفية تجديد الفكر الإسلامي ، والتي يفترض أن ينهض بها كل مسلم ، وحسبه في ذلك أنّ الواقع المتغيّر ، والحوادث المستجدة وسرعة التطور التي نعيشها بشكل يومي تجعلنا في مواجهة دائمة ومباشرة مع ضرورة التجديد ، وهذا بطبيعة الحال لا يعني أن نفتح الباب على مصراعيه أمام كل دعوة للتجديد ، أو كل منهج يهدف إلى التغيير ، بل العكس ، فإن تزايّد تلك الأهمية تتناسب طردياً مع تزايد الحاجة إلى ضبط عملية التجديد وتقنينها بالطريقة التي تجعل من التجديد وسيلة تمكّنْ الفكر الإسلامي من استيعاب كل التطورات التي تشهدها الحياة في الوقت الراهن ، وتجعل الاجتهاد أداة لإخضاع الواقع للشريعة ، وحينها لا يكون التجديد هدفاً بذاته ، بل وسيلة لبلوغ الغاية التي يحقق الدين من خلالها مقاصده وأهدافه .

خامساً:- يؤكد المستيري أن العالم الإسلامي في حاجة إلى نهضة شامة في مجال الفكر وتجديده ، مؤكدا أن ذلك لا يتم إلا بثورة على الأوضاع التقليدية ، وتخليص العقلية الإسلامية والواقع من الجمود ؛ بحيث يتم بناء منظومة فكرية إسلامية على هدى الشريعة الإسلامية ، ويسخر من أجل ذلك علوم العصر وتقنياته ، وهنا أشار إلى أن ذلك لا يمكن إتمامه إلا أن تقوم النهضة المرجوة على منهج الإسلام الصحيح ، أو الاشتغال بالجزئيات دون النظر إلى مقاصد الشريعة الكلية ، وعلى هذا القول ، لا يكون التجديد مبنياً على أصول ورثناها لا تليق بمتطلبات الحاضر ، وبعيدة عن واقع الحياة ، وبالنزعة المحافظة الضيقة والتي لا تفي بحاجة ولا تستوعب حركتها المعاصرة . إذن يرتبط التجديد لدى محمد المستيري ارتباطاً وثيقاً بالعقلانية ، وفيه دعوة لتنوير الفكر الإسلامي ، ويكون ذلك بتعلم أساليب التفكير الصحيحة ، والتذرع بالمبادئ العلمية الرصينة ، كي يتهيأ المجددون لأداء مهمتهم على الوجه الأكمل ، فيكون التجديد نعمة ، ووسيلة لإنقاذ المجتمع من أنواع الاستعباد الفكري والروحي الذي يحرص كثير من الرجعيين على بقائه . يؤكد المستيري أن حركة التجديد في الفكر الإسلامي تشهد أزمة فعليّة في التنظير ، كما في الدراسات التطبيقية ، وغياب استراتيجية بحثية إسلامية موحدة أو تنسيقية يعيق كثيراً فاعلية المثقف المسلم وسلطته في بناء وجهة معرفية للنهوض وتقويم وترشيد تجاربه .

سادساً:- سيظل منهج التجديد في مجال الفكر الإسلامي هو الأمل الوحيد الذي لا خيار عنه ، لأن المجتمعات الإسلامية تعيش حالة من السبات الفكري ، وليس من حل غير تنوير أفكار المجددين فيها كي يحملوا مشاعل النور التي تضيء سواد الليل وتطارد ظلامه الدامس ، ويبزغ الفجر يحمل بين يديه بشرى عهد جديد ، يتصدى فيه المجددون لكل التحديات الفكرية المعاصرة ، وعند ذلك يتراجع عصر التخلف وسيجد هؤلاء المفكرون الإجابات المناسبة والبدائل لكل متطلبات التجديد ، وهي بدائل تسهم في تطوير ورقي المجتمع

ثبت المصادر

ـــــ القرآن الكريم .

ـــــ حسن الترابي .

١- تجديد الفكر الإسلامي ، دار القرافي ، ط١ ، (المغرب/١٩٩٣م) .

ـــــ شوقي جلال .

[١] جدل التأصيل والمعاصرة ، ص٢٢٢ .

٢- التراث والتاريخ ، دار سينا للنشر ، ط١ ، (القاهرة/١٩٨٦م) .
ـــــ **زكي الميلاد .**
٣- الإسلام والتجديد ،المركز الثقافي العربي ، ط١ ، (الدار البيضاء/٢٠٠٨م) .
ـــــ **عبد القادر عرفه .**
٤- المدينة والسياسة ، ، مركز الكتاب للنشر ، ط١ ، (القاهرة/٢٠٠٦م) .
ـــــ **عبد الكريم زيدان .**
٥- نظرية التجديد في الفكر الإسلامي ،لا.م ، (د.ب/د.ت) .
ـــــ **علال الفاسي .**
٦- التيارات الأيدلوجية في العالم العربي ، إعداد : عبد العلي الودغيري ، مطبعة النجاح ، ط١ ، (الدار البيضاء/٢٠٠٠م) .
ـــــ **فتحي عثمان .**
٧- الفكر الإسلامي والتطور ، دار المعرفة ، (القاهرة/١٩٨٦م) .
ـــــ **محمد الغزالي .**
٨- ليس من الإسلام ، دار القلم ، ط١ ، (بيروت/١٩٩٧م) .
ـــــ **محمود الشرقاوي .**
٩- التطور روح الشريعة الإسلامية ، المكتبة العصرية ، (بيروت/١٩٦٩م) .
ـــــ **معن زيادة .**
١٠- معالم على طريق تحديث الفكر العربي ، عالم المعرفة ، (الكويت/١٩٨٧م) .
ـــــ **وليد منير .**
١١- التنمية وأزمة الثقافة ، بحث منشور في كتاب الأمة وأزمة الثقافة والتنمية ، دار السلام للطباعة ، ط١ ،(القاهرة/٢٠٠٧م) .
ـــــ **يوسف القرضاوي .**
١٢- السنة مصدر للمعرفة والحضارة ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، (بيروت/١٩٩٦م) .